إعجاز القرآن بين الرافعي ومحمد عبدالله دراز
من خلال كتابيهما: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية والنبأ العظيم (دراسة مقارنة)

د. نوف سعيد عوض المالكي

الأستاذ المشارك بقسم القراءات

بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

يهدف هذا البحث إلى إبراز قضية إعجاز القران الكريم في العصر الحديث، وذلك من خلال عقد مقارنة بين أبرز كتابين صنفا في هذا الفن وهما كتاب "إعجاز القرآن

والبلاغة النبوية" لأديب العصر مصطفى صادق الرافعي، وكتاب "النبأ العظيم" للدكتور محمد عبدالله دراز، وقد كشف البحث عن أهم ما تميز به كل كتاب، كما أظهر عبقرية الرافعي الأدبية، ورسوخ قدم الدكتور دراز في العلوم العقلية، كما كشف عن عمق التفكير عند الدكتور دراز، وذلك من خلال عرض مسألة سر زيادة الكاف في قول الله تعالى: ﴿ليس كمثله شيئ... ﴾، واستخراج الأسرار البلاغية في زيادة الكاف، وقد اتبعت في ذلك المنهج المقارن ويتبع ذلك المنهج التحليلي.

الكلمات المفتاحية:
إعجاز- القرآن- بين- الرافعي- ومحمد- عبدالله-دراز- دراسه- مقارنة.

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين سيدنا وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، ومصابيح نوره، من الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ومن اهتدى بهديهم وصار على نهجهم إلى يوم الدين وبعد:

فإن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للثقلين، والحجة الدامغة لأهل المين، شهد بذلك الموافق والمخالف وجاءت بذلك الأحاديث والأخبار،والسنن والأثار؛فقد قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» [1]، كيف لا وقد نزل على قوم فصحاء، وسادة وجهاء، فكان القرآن يقرع سمعهم، ويتحداهم ومن وراءهم، فما نطق أحدهم ببنت شفه، ولا استطاع أن يأتي ولو برشفه، ولكنهم لما علموا أنهم عن ذلك عاجزون، استسلموا لميدان القتال، وكان يكفيهم أن يأتوا بأقل سورة مثله؛ ليصرفوا وجوه الناس عنه، فكان هذا الفعل منهم شهادة للقرآن أنه معجز، وأنه فوق طاقات البشر، ومن وراء القدر، ولئن عجز أرباب البلاغة

(١) صحيح الإمام البخاري باب أول ما نزل وكيف نزل حديث رقم ٤٩٨١

والفصاحة، فغيرهم أعجز ولو جمعوا له الثقلين قالتعالى:چ پ پ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ چ[1]، بل قال قائلهم: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وما يقوله بشر، فلما كان ذلك الاستسلام، لم يجرؤ أحد على مجاراته، ولم ينزل لمباراته، لعلمهم بعجزهم التام ومضى على ذلك القرن الأول ثم الثاني حتى اختلط الأعاجم بالعرب؛ فأفسدوا عليهم لغتهم حتى ظن من لا يعلم أن القرآن فيه خروج عن أساليب العرب، فقال في قوله تعالى:چ ں ڻ ڻ ڻ چإنمايمثل الغائب بالحاضر، ورؤوس الشياطين لم نرها، فكيف يقع التمثيل بها! وهؤلاء في هذا القول كما قال الله جل وعز: چې ې ې ى ى ئا ئا ئەچ. فانبربالعلماء في الرد على أمثال هؤلاء فألفوا التآليف وصنفواالتصانيف، فكان من ذلك إعجاز القرآن للرماني[2]، والخطابي[3]والباقلاني[4]، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني[5]، وغيرها الكثير من المؤلفات في هذا الشان، ثم جاء القرن الرابع عشر الهجري فألف الأديب مصطفى صادق الرافعي[6]كتابه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ثم أتى بعده الدكتور محمد عبدالله دراز[7]فألف كتابه النبأ العظيم، فجاء كتاباهما منقطعا النظير في هذا العلم، وقد اخترنا هذين الكتابين لعقد مقارنة بينهما مبينين أهم ما امتاز به كل منهما، والله من وراء القصد.

---

(١) سورة الإسراء آية رقم، ٨٨.

(٢) العلامة أبو الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي المعتزلي. أخذ عن: الزجاج، وابن دريد ،وطائفة. وعنه: أبو القاسم التنوخي، والجوهري، وهلال بن المحسن. وصنف في التفسير واللغة والنحو، والكلام، وشرح "سيبويه"، وكتاب "الجمل"، وله في الاشتقاق، وفي التصريف، وأشياء ،وألف في الاعتزال "صنعة الاستدلال" سبع مجلدات، وكتاب "الأسماء والصفات"، وكتاب "الأكوان"، وكتاب "المعلوم والمجهول". له نحو من مائة مصنف، توفي سنة ٣٨٤هـ، سير أعلام النبلاء ٤٦٧/١٢.

(٣) الإمام العلامة، الحافظ اللغوي، أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي، صاحب التصانيف.ولد سنة بضع عشرة وثلاث مائة. توفي الخطابي ببست في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاث مائة.سير أعلام النبلاء ٤٧٤/١٢.

(٤) محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر: قاض، من كبار علماء الكلام. انتهت اليه الرياسه في مذهب الأشاعرة. ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفي فيها. كان جيد الاستنباط، سريع الجواب. وجهه عضد الدولة سفيرا عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها. من كتبه (إعجاز القرآن - ط)، توفي سنة ٤٠٣هـ، الأعلام للزركلي ١٧٦/٦.

(٥) عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، ابو منصور: عالم متفنن، من أئمة الأصول. كان صدر الإسلام في عصره. ولد ونشأ في بغداد، ورحل إلى خراسان فاستقر في نيسابور.توفي سنة ٤٢٩هـ، الأعلام للزركلي ٤٨/٤.

(٦)ستأتي ترجمته.

(٧) ستأتي ترجمته.

وقد اقتضت خطة البحث أن تكون من مقدمة ومبحث تحته مطالب.

المطلب الأول: التعريف بالرافعي، ودراز وكتابيهما

التعريف بالرافعي:

هوالأديب مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي: عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتاب. أصله من طرابلس الشام، ومولده في بهتيم (بمنزل والد أمه) ووفاته في طنطا (بمصر) أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به. شعره نقي الديباجة، على جفاف في أكثره. ونثره من الطراز الأول. له (ديوان شعر - ط) ثلاثة أجزاء، و (تاريخ آداب العرب - ط) جزآن، ثالثهما (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - ط) و (تحت راية القرآن - ط) و (رسائل الأحزان - ط) و (على السفود - ط) رد على العقاد، و (وحي القلم - ط) ثلاثة أجزاء، و (ديوان النظرات - ط) و (السحاب الأحمر في فلسفة الحب والجمال - ط) و (حديث القمر - ط) و (المعركة - ط) في الرد على كتاب الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي، و (المساكين - ط) و (أوراق الورد - ط) . ولمحمد سعيد العريان، كتاب (حياة الرافعي - ط) ولمحمود أبي رية: (رسائل الرافعي - ط) وهي رسائل خاصة، مما كان يبعث به إليه، اشتملت على كثير من آرائه في الأدب والسياسة ورجالهما.

أما كتابه إعجاز القرآن فلم يسبق إلى مثله، فقد توج به مؤلفاته بل هو درة التاج قال عنه الزعيم سعد باشا زغلول: حضرة المحترم الفاضل الأستاذ مصطفى صادق الرافعي.

تحدى القرآن أهل البيان في عبارات محرجة، ولهجة واجزة مرغمة، أن يأتوا بمثله أو سورة منه، فما فعلوا ولو قدروا ما تأخروا، لشدة حرصهم على تكذيبه ومعارضته بكل ما ملكت أيمانهم، واتسع له إمكانهم.

هذا العجز الوضيع بعد ذاك التحدي الصارخ، هو أثر تلك القدرة الفائقة، وهذا السكوت الذليل، بعد هذا الاستفزاز الشامخ هو أثر ذلك الكلام العزيز.

ولكن أقواماً أنكروا هذه البداهة وحاولوا سترها؛ فجاء كتابكم "إعجاز القرآن " مصدقا لآياتها، مكذبا لإنكارهم، وأيد بلاغة القرآن وإعجازها، بأدلة مشتقة من أسرارها، في بيان مستمد من روحها، كأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم، فلكم على الاجتهاد في وضعه، والعناية بطبعه شكر المؤمنين، وأجر العاملين والاحترام الفائق[1].

(١) من تقريظ سعد باشا زغلول للطبعة الأولى لكتاب إعجاز القرآن للرافعي.

وقال عنه الدكتور /يعقوب صروف (منشئ مجلة المقتطف): يجب على كل مسلم عنده نسخة من القرآن، أن تكون عنده نسخة من هذا الكتاب.(١)

ثانياً: التعريف بالدكتور /محمد عبدالله دراز وكتابه.

الأستاذ الدكتور/ محمد عبد الله دراز، أحد أعلام الأزهر بوجه خاص، وعلماء الإسلام بوجه عام، في القرن الماضيولد في محلة دياي مركز دسوق محافظة كفر الشيخ في ١٢ يناير سنة ١٨٧٤م،وهو عالم فذ، وداع ملهم، جمع بين العلم والعمل، وكان قلمه في مجال الكلمة يقوم بمهمات جيش عرمرم في مجال الجهاد، تثبيتا للحق، ونصرة للدين على الصعيدين: القومي والدولي.

وقد عاش حياته، منذ أن كان طالبا للعلم في المرحلة الثانوية الأزهرية، مدافعا عن الإسلام في كل الميادين بما آتاه الله من قلب صاف وعقل وقاد، ولسان زرب، وعلم واسع، فدبج المقالات، وكتب الكتب، وأذاع الأحاديث، وشارك في الكثير من المؤتمرات العالمية، وتصدى لكل ما كان يثار في حياته عن الإسلام، وما أعجزته فرية على الإسلام ردها، ولا شبهة ظالمة نقدها، ولا مشكلة عويصة فندها.وظل على هذه الحال حتى آخر لحظة من حياته الحافلة بالنضال المر، والكفاح الشاق، حتى صعدت روحه الطاهرة إلى بارئها غريباً عن وطنه، وهو يمثل الأزهر في مؤتمر دولي عام، في لاهور عام (١٣٧٧هـ، ١٩٥٨م) .وبعد أن عاد جثمانه الطاهر إلى أرض الكنانة مصر -رعاها الله- على متن طائرة، شيعت جنازته بعد أن صلي عليه في "الجامع الأزهر"، وكان في مقدمة مشيعيه علماء الأزهر، ومعاهده وكلياته، وعارفو فضله من الشعب المصري، وكبار الشخصيات.(٢)

قال عنه تلميذه الدكتور عبدالعظيم المطعني: الشيخ الدكتور الإمام محمد عبد الله دراز: "أنه لو لم ينجب الأزهر الشريف عالما سواه في القرن الماضي لكفاه هذا الإنجاب". رحمنا الله وإياه في العالمين. (٣)

أما عن كتابه النبأ العظيم فتكفيه شهادة علماء عصره أنه لم يسبق إلى مثله في هذا المجال، فهذا الدكتور محمد رجب البيومي يقول عنه: لقد أصدر الدكتور دراز "النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم"؛ ليتحدث عن القرآن حديث الفاقه الدارس الألمعي، فجاء كتابه آية الآيات في ميدان الدراسات القرآنية بما ملك من ناصية القول وقوة المنطق وجهارة الدليل، ولئن قال الزعيم الوطني سعد زغلول عن كتاب

(١) مقدمة الطبعة الثانية لكتاب إعجاز القرآن.

(٢) مقدمة كتاب النبأ العظيم كتبها الدكتور عبدالعظيم المطعني.

(٣) المصدر السابق.

الرافعي في الإعجاز: "إنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم". فما أحرى النبأ العظيم بمثل هذا القول من زعيم كبير. (١)

وقال عنه سعيد النورسي: " إن كل صفحة كتبها محمد عبد الله دراز تعلن أنه تلميذ القرآن، وأن أستاذية القرآن هي التي جعلته يبصر الكون والتاريخ والحياة برؤية إيمانية جامعة تستوعب الأشياء، وتمنح عقله التوهج والتألق؛ لينفذ إلى ما وراء الأشياء ويفسر حركة الحياة تفسيرا جامعاً للعوالم المنظورة والعوالم غير المنظورة"(٢).

المطلب الثاني: ما تميز به كل من الرافعي ودراز.

أهم ما تميز به الرافعي في كتابه إعجاز القرآن.

"حين كتب الرافعي كتابه جاء بالروائع النادرة من ناحية التعبير البياني، أما الأفكار التي رصدها فأكثرها قد قيل، وزاد عليها الرافعي بما عرف عنه من براعة النظم البلاغي، ودقة التركيب اللغوي، ولطف التصوير الجمالي ومثال ذلكالتعبير البياني قولهحين وصف القرآن بأسلوب يأخذ الألباب: القرآنآيات منزلة من حول العرش، فالأرض بها سماء هي منها كواكب، بل الجند الإلهي قد نشر له من الفضيلة علم وانضوت إليه من الأرواح مواكب، أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقفالها،وامتنعت عليها أعراف " الضمائر فابتز " أنفالها".

وكم صدوا عن سبيله صداً، ومن ذا يدافعالسيل إذا هدر؛ واعترضوه بالألسنة ردا، ولعمري من يرد على الله القدر؟ وتخاطروا له بسفهائهم كما تخاطرت الفحول بأذناب وفتحوا عليه من الحوادث كل شدق فيه من كل داهية ناب.

فما كان إلا نور الشمس: لا يزال الجاهل يطمع في سرابه ثم لا يضع منه قطرة في سقائه، ويلقي الصبي غطاءه ليخفيه بحجابه ثم لا يزال النور يتبسط على غطائه.

وهو القرآن كم ظنوا - مما انطوىتحت ألسنتهم وانتشر - كل ظن في الحقيقة آثم، بل كل ظن بالحقيقة كافر، وحسبوه أمرا هينا لأنه أنزل في الأرض على بشر.

كما يحسب الأحمق في هذا السماء أرضا ذات دواب نورانية لأنهلالها كأنما سقط من حافر، وكم أبرقوا وأرعدوا حتى سال بهم وبصاحبهم السيل، وأثاروا من الباطل

---

(١) كتاب النهضة الاسلامية في سير أعلامها المعاصرين للدكتور محمد رجب البيومي ط مجمع البحوث الإسلامية، جـ٥، صـ١٨٤.

وينظر البيان القرآني صـ١٩١، ١٩٥، ٢٥٠، ٢٥٨، ط مجمع البحوث الإسلامية.

(٢) بتصرف عن د. عبد الحليم عويس، سعيد النورسي رجل القرآن والتجديد، دار سوزلار للنشر والتوزيع.

في بيضاء ليلها كنهارها ليجعلوا نهارها كالليل، فما كان لهم إلا ما قال الله: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون)ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدنيافمنها عمادها ونظامها وتصف الآخرة فمنها جنتها وصرامها، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب.

ومعان بينا هي عذوبة ترويك من ماء البيان، ورقة تستروح منها نسيم الجنان، ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الأمان. وبينا هي ترف بندى الحياة على زهرة الضمير، وتخلق في أوراقهامن معاني العبرة معنى العبير، وتهب عليها بأنفس الرحمة فتنم بسر هذا العالم الصغير.

ثم بينا هي تتساقط من الأفواه تساقط الدموع من الأجفان، وتدع القلب من الخشوع كأنه جنازة ينوحعليها اللسان، وتمثل للمذنب حقيقة الإنسانية حتى يظن أنه صنف آخر من الإنسان - إذ هي بعد ذلك إطباق السحاب وقد انهارت قواعده والتمعت ناره وقصفت في الجو رواعده، وإذ هي السماءوقد أخذت على الأرض ذنبها، واستأذنت في صدمة الفزع ربها، فكادت ترجف الراجفة تتبعهاالرادفة: وإنما هي عند ذلك زجرة واحدة: فإذا الخلق طعام الفناء وإذا الأرض " مائدة "[1].

فأنت تجد في هذا النص جل أساليب البلاغة في حسن تصرف، وجودة سبك، وسلاسة أسلوب، وعذوبة ألفاظ، فما بالغ واصفه حين قال: "كأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم" فهذا مما تميز به أسلوب الرافعي في كتابه، وكيف لا وهو أديب العصر بلا منازع ورافع راية الأصالة في علوم اللغة بلا مدافع.

أمّا الدكتور محمد عبدالله دراز: فقد مال في أسلوبه إلى الحجة الإقناعية، والبراهين العقلية وإليك مثال من ذلك الأسلوب العقلي الرصين، حيث يقول: في الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضيا يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل، ذلك أنها ليست من جنس "الدعاوى" فتحتاج إلى بينة، وإنما هي من نوع "الإقرار" الذي يؤخذ به صاحبه ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه، إن أية مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، نقول: أية مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ منها انسلاخا؟

(١) كتاب إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٢٣، ٢٤.

على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدا يعارضه ويزعمها لنفسه.

الذي نعرفه أن كثيرا من الأدباء يبسطون على آثار غيرهم فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله وغلت قيمته وأمنت تهمته، حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الأثواب المستعارة. أما أن أحدا ينسب لغيره أنفس آثار عقله وأغلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلده الدهر بعد.

ولو أننا افترضناه افتراضا لما عرفنا له تعليلا معقولا ولا شبه معقول، اللهم إلا شيئا واحدا قد يحيك في صدر الجاهل، وهو أن يكون هذا الزعيم قد رأى أن في "نسبته القرآن إلى الوحي الإلهي" ما يعينه على استصلاح الناس باستيجاب طاعته عليهم ونفاذ أمره فيهم؛ لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه إلى نفسه.وهذا قياس فاسد في ذاته، فاسد في أساسه.

أمّا إنه فاسد في ذاته؛ فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه والكلام المنسوب إلى الله تعالى؛ فلم تكن نسبته ما نسبه إلى نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئا، ولا نسبة ما نسبه إلى ربه بزائدة فيها شيئا، بل استوجب على الناسطاعته فيهما على السواء، فكانت حرمتهما في النفوس على سواء، وكانت طاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصية الله، فهلا جعل كل أقواله من كلام الله تعالى لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوهم.

وأمّا فساد هذا القياس من أساسه؛ فلأنه مبني على افتراض باطل، وهو تجويز أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية إصلاحية أن يعبروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه، وذلك أمر يأباه علينا الواقع التاريخي كل الإباء، فإن من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته، وعباراته وإشاراته، في رضاه وغضبه، في خلوته وجلوته.. لا يشك في أنه كان أبعد الناس عن المداجاة والمواربة، وأن سره وعلانيته كانا سواء في دقة الصدق وصرامة الحق في جليل الشئون وحقيرها، وأن ذلك كان أخص شمائله وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها، كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه إلى يومنا هذا :چچ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ژ ژ ڑ ڑک ک کچ[1]،[٢].

(1) سورة يونس آية :١٦.

(٢) النبأ العظيم ص٥٢.-١٧.

هذا كلام الدكتور دراز، يرد به على من يزعمون أن القرآن بشري المصدر أي إنه من كلام محمد ﷺ، وأنت ترى كيف يرد هذه الفرية بالحجاج العقلي، بحيث لا يدع للشك مجالا، متدرجا في أسلوبه بحيث يفهمه العامة مخاطباً إياهم، كيف تنسبون لمحمد ما لا ترضون به لأنفسكم، فإن الشاعر أو الخطيب لا ينسبكلامه الذي أتى فيه بما يأسر القلوب ويأخذ الألباب لغيره؛ فهل هذا من المنطق الصحيح، ثم يأتي بالأقيسة المنطقية ليدلل على ما رامه من دحض تلك السفاهات التي تدل علي سفه العقول ومرض القلوب.

هكذا جاء أسلوب الدكتور دراز عقلي رصين، يباين أسلوب الرافعي في كتابه،؛ فهذا يرتكز على الأسلوب الأدبي بالغا الذروة فيه، وذاك يسوق البراهين العقلية سالكاً طريق التدرج حتى ينتفع به العامة والخاصة، ولا عجب في ذلك فكل إناء بما فيه ينضح؛ فالرافعي مارس فنون البلاغة والأدب، وعايشهمادهرا طويلاً، وكان لفقده حاسة السمع الفضل الأكبر ذلك حيث لا تطرأ علي سمعه الألفاظ العامية، وكأني به وهو يطالع كتب البلاغة والأدب يعيش في عصور أصحابها، لا يعرف سوى الفصاحة والبيان.

أمّا الدكتور دراز فقد كان لدراسته العقلية، الأثر البالغ في صياغة هذا الأسلوب العقلي الرصين، لا سيما أنه عايش أرباب هذه الإدعاءاتوذلك خلال دراسته في جامعة (السربون) فخبر أساليبهم وسبر أغوارها فاستطاع بذلك أن يسوق لنا هذه البراهين الواضحة في سلاسة ويسر.

ومن المسائل التي تميز بها الرافعي في كتابه مسألةغرابة اللفظفقال: وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه،وهي كلمة " ضيزى " من قوله تعالى: چۈ ۇ ۆ ۆ چ

ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه؛ولو أدرت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها؛ فإنالسورة التي هي منها وهي سورة النجم، مفصلة كلها على الياء؛ فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ثم هي في معرض الإنكار على العرب؛ إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بناب لله مع أولادهم البنات فقال تعالى: چڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۇ ۆ ۆ چفكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمةالتي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى؛ وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره من

إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيهاإلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية.

والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام، وله نظائر في لغتهم، وكم من لفظة غريبة عندهم لا تحسن إلا في موضعها، ولا يكون حسنها على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذي سبقت له بلفظها وهيئة منطقها، فكأن في تأليف حروف معنى حسيا، وفي تألف أصواتها معنى مثله فيالنفس؛ وقدنبهنا إلى ذلك في باب اللغة من تاريخ آداب العرب(١).

هذا الوجه الإعجازي الذي ذكره الرافعي يعد من المسائل التي لم يسبقه أحد إليه، حيث بين أن فصاحة الكلمة في غرابتها، وأنها مناسبة لتلك القسمة الغريبة التي أتوا بها، وهذا دليل على رسوخ قدم الرافعي في ذلك الفن وتمكنه منه.

أمّا الدكتور دراز فقد ذكر مسألة هي درة التاج في ذلك المؤلف الفريد حيث يقول: سر زيادة الكاف في قوله تعالى: چ ذ ث ثچ، "أكثر" أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة، فراراً من المحال العقلي الذي يفضي إليه بقاؤها على معناها الأصلي من التشبيه؛ إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافية الشبيه عن مثل الله، فتكون تسليما بثبوت المثلله سبحانه، أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفائه؛ لأن السالبة -كما يقول علماء المنطق- تصدق بعدم الموضوع. أو لأن النفي -كما يقول علماء النحو- قد يوجه إلى المقيد وقيده جميعاً. تقول: "ليس لفلان ولد يعاونه" إذا لم يكن له ولد قط أو كان له ولد ولا يعاونه. وتقول: "ليس محمد أخاً لعلي" إذا كان أخاً لغير علي أو لم يكن أخاً لأحد. "وقليل منهم" من ذهب إلى أنه لا باس ببقائها على أصلها؛ إذ رأى أنها لا تؤدي إلى ذلك المحال لا نصاً ولا احتمالا؛ لأن نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضاً. وذلك أنه لو كان هناك مثل الله لكان لهذا المثل مثل قطعا وهو الإله الحق نفسه، فإن كل متماثلين يعد كلاهما مثلا لصاحبه، وإذا لا يتم انتفاء مثل المثل إلا بانتفاء المثل وهو المطلوب.

وقصارى هذا التوجيه -لو تأملته- أنه مصحح لا مرجح، أي أنه ينفي الضرر عن هذا الحرف، ولكنه لا يثبت فائدته ولا يبين مسيس الحاجة إليه؛ ألست ترى أن مؤدي الكلام معه كمؤداه بدونه سواء، وأنه إن كان قد ازداد به شيئا فإنما ازداد شيئا من التكلف والدوران وضربا من التعمية والتعقيد. وهل سبيله إلا سبيل الذي أراد أن

(١) النبأ العظيم ص ١٥٧-١٨٠

يقول: "هذا فلان" فقال: "هذا ابن أخت خالة فلان"؟ فمآله إذا إلى القول بالزيادة التي يسترونها باسم التأكيد، ذلك الاسم الذي لا تعرف له مسمى ها هنا؛ فإن تأكيد المماثلة ليس مقصودا البتة، وتأكيد النفي بحرف يدل على التشبيه هو من الإحالة بمكان.

ولو رجعت إلى نفسك قليلا لرأيت هذا الحرف في موقعه محتفظا بقوة دلالته، قائماًبقسط جليل من المعنى المقصود في جملته، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى، أو لتهدم ركن من أركانه، ونحن نبين لك هذا من طريقين، أحدهما أدق مسلكا من الآخر:

الطريق الأول:وهو أدنى الطريقين إلى فهم الجمهور: أنه لو قيل: "ليس مثله شيء" لكان نفيا للمثل المكافئ، وهو المثل التام المماثلة فحسب؛ إذ إن هذا المعنى الذي ينساق إليه الفهم من لفظ المثل عند إطلاقه. وإذا لدب إلى النفس دبيب الوساوس والأوهام: أن لعل هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها، وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء، أو للكواكب وقوى الطبيعة، أو للجن والأوثان والكهان، فيكون لهم بالإله الحق شبه ما في قدرته أو علمه، وشرك ما في خلقه أو أمره.. فكان وضع هذا الحرف في الكلام إقصاء للعالم كله عن المماثلة وعما يشبه المماثلة وما يدنو منها، كأنه قيل: ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلا لله، فضلا عن أن يكون مثلا له على الحقيقة. وهذا باب من التنبيه بالأدنى على الأعلى، على حد قوله تعالى: چ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ چ

١ نهيا عن يسير الأذى صريحا، وعما فوق اليسير بطريق الأحرى.

الطريق الثاني:وهو أدقهما مسلكا: أن المقصود الأولي من هذه الجملة وهو نفي الشبيه، وإن كان يكفي لأدائه أن يقال: "ليس كالله شيء" أو "ليس مثله شيء" لكن هذا القدر ليس هو كل ما ترمي إليه الآية الكريمة، بل إنها كما تريد أن تعطيك هذا الحكم تريد في الوقت نفسه أن تلفتك إلى وجه حجته وطريق برهانه العقلي.

ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفي عن امرئ نقيصة في خلقه فقلت: "فلان لا يكذب ولا يبخل" أخرجت كلامك عنه مخرج الدعوى المجردة عن دليلها. فإذا زدت فيهكلمة فقلت: "مثل فلان لا يكذب ولا يبخل" لم تكن بذلك مشيراً إلى شخص آخر يماثله مبرأ من تلك النقائص، بل كان هذا تبرئة له هو ببرهان كلي، وهو أن من يكون على مثل صفاته وشيمه الكريمة لا يكون كذلك؛ لوجود التنافي بين طبيعة هذه الصفات وبين ذلك النقص الموهوم.

على هذا المنهج البليغ وضعت الآية الحكيمة قائلة: "مثله تعالى لا يكون له مثل". تعني أن من كانت له تلك الصفات الحسنى وذلك المثل الأعلى لا يمكن أن يكون له شبيه، ولا يتسع الوجود لاثنين من جنسه. فلا جرم جيء فيها بلفظين، كل واحد منهما يؤدي معنى المماثلة؛ ليقوم أحدهما ركنا في الدعوى، والآخر دعامة لها وبرهانا. فالتشبيه المدلول عليه "بالكاف" لما تصوب إليه النفي تأدى به أصل التوحيد المطلوب؛ ولفظ "المثل" المصرح به في مقام لفظ الجلالة أو ضميره نبه على برهان ذلك المطلوب.

واعلم أن البرهان الذي ترشد إليه الآية على هذا الوجه برهان طريف في إثبات وحدة الصانع، لا نعلم أحداً من علماء الكلام حام حوله؛ فكل براهينهم في الوحدانية قائمة على إبطال التعدد بإبطال لوازمه وآثاره العملية. حسبما أرشد إليه قوله تعالى: چۋ و و ۉ ۉ ې ې چأمّا آية الشورى المذكورة فإنها ناظرة إلى معنى وراء ذلك ينقض فرض التعدد من أساسه، ويقرر استحالته الذاتية في نفسه بقطع النظر عن تلك الآثار. فكأننا بها تقول لنا: إن حقيقة الإله ليست من تلك الحقائق التي تقبل التعدد والاشتراك والتماثل في مفهومها، كلا، فإن الذي يقبل ذلك إنما هو الكمال الإضافي في الناقص، أما الكمال التام المطلق الذي هو قوام معنى الإلهية، فإن حقيقته تأبى على العقل أن يقبل فيها المشابهة والاثنينية؛ لأنك مهما حققت معنى الإلهية حققت تقدما على كل شيء وإنشاء لكل شيء: چڈ ۀ ۀ چ، وحققت سلطانا على كل شيء وعلوا فوق كل شيء: چگ گ گ گچفلو ذهبت تفترض اثنين يشتركان في هذه الصفات لتناقضت؛ إذ تجعل كل واحد منهما سابقا مسبوقا، ومنشئا منشأ. ومستعليا مستعلى عليه. أو لأحلت الكمال المطلق إلى كمال مقيد فيهما؛ إذ تجعل كل واحد منهما بالإضافة إلى صاحبه ليس سابقا ولا مستعليا. فأنى يكون كل منهما إلها، ولإله المثل الأعلى؟!أرأيت كم أفدنا من هذه "الكاف" وجوها من المعاني كلها شاف كاف؟فاحفظ هذا المثال وتعرف به دقة الميزان الذي وضع عليه النظم الحكيم حرفاً حرفاً.

الإيجاز بالحذف مع الوضوح والطلاوة:"وبعد" فإن سر الإيجاز في القرآن لا يقف عند الحد الذي أشرنا إليه، من اجتناب الحشو والفضول بتة، وانتقاء الألفاظ الجامعة المانعة التي هي -بطبيعتها اللغوية- أتم تحديدا للغرض، وأعظم اتساعاً لمعانيه المناسبة، لا، بل إنه كثيراً ما يسلك في إيجازهسبيلاً أعز وأعجب.(١)

(١) النبأ العظيم ص١٦٥،١٦٦،١٦٧،١٦٨.-١٩

لعلك ترى معي ذلك المسلك العجيب الذي سلكه المؤلف في نفي زيادة الكاف في قوله تعالى:چثثثچواعتراضه على من زعم ذلك من علماء اللغة وعلماء الكلام على حد سواء، وذلك فرارا من المحال العقلي الذي يترتب على عدم زيادتها كما هو موضح في كلام المؤلف، ولم يقتصر على ذلك فحسب، بل بين سر هذه الكاف، وأن وجودها هو سر الإعجاز نفسه، وكل ذلك لا يدركه إلا من رسخت قدمه في العلوم العقلية والعربية أيضاً،؛ لدقة مسلكه.

وأذكر لك هنا كلام شيخ البلاغيين الدكتور محمد أبو موسى عن هذا المبحث الرائع،؛ لتكون على ثقة مما ذكرته لك، إذ يقول: "إن الشيخ قد ذكر الآية وأتبعها بما يكشف عن مدلول الحروف، متخذا من دلالة الكتابة التي ذكرها الزمخشري أساسا لتأمله الخصب الذي يريك كيف تكون بصيرة البحث قادرة على أن تبعث من الفكرة القديمة المألوفة فكرة جديدة غير مألوفة، وكيف ترى جلال مقالة القدماء إذا صادفت نفسا خصبة فيها بقية من طبائع العلماء"[١]

فالرافعي أبرز الجانب الأدبي لديه في المثال السابق، أما الدكتور دراز فقد برز عنده الجانبين اللغوي والعقلي في هذه المسألة.

هذه أهم ما تميز به كل من الرافعي ودراز في كتابيهما.

أما نقاط الاتفاق عند الرافعي ودراز فتتلخص في:

١-اتفق كل من الرافعي ودراز، على غاية واحدة وهي إبراز سر هذا الكلام المعجز "القرآن الكريم" ورد شبهات المغرضين والمبطلين، وإن اختلفا في طريقة التعبير.

٢- اتفقا أيضا في سلاسة الأسلوب وعذوبة الألفاظ، وإن كانت عند الرافعي أعمق منها عند الدكتور دراز.

٣-دقة البحث في المسائل، التي تدور حولها الشبهات، كما في مسألة غرابة اللفظ عند الرافعي، ومسألة زيادة الكاف عند دراز.

كما أن هناك مباحث انفرد بها كل منهما.

١-انفرد الرافع يبمسائل منها،تاريخ القرآنجمعه وتدوينه، القراءة وطرق الأداء، القراء، وجوه القراءة، الأحرف السبعة، مفردات القرآن، تأثير القرآن في اللغة، الجنسية العربية في القرآن..

ولعل أبرز ما انفرد به الدكتور دراز، الدراسة الموضوعية التي قدمها لسورة البقرة، مبينا مقاصد السورة بطريقة جديدة غير الطرق المتبعة في مؤلفات السابقين، من

(١) التصوير البياني د/محمد موسى ص٤٠٤.

اختيارهم لبعض الأيات وعقد مقارنة بينها وبين ما ورد عن العرب من الشعر والنثر،؛ ففتح أبوابا جديدة لمن أراد أن يكشف أسرار ذلك الكتاب "القرآن الكريم".

خلاصة البحث:

•الوقوف على محاولات جديدة لكشف أسرار الإعجاز في القرآن الكريم، من خلال كتاب" إعجاز القرآن والبلاغة النبوية " للرافعي، وكتاب "النبأ العظيم" للدكتور محمد عبدالله دراز.

•تميز كتاب "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" للرافعي بسلاسة الأسلوب الأدبي، وبلوغ الذروة في بحث المسائل الأدبية.

•تميز كتاب "النبأ العظيم" للدكتور محمد عبدالله دراز، بدقة البحث، وعمق التفكير، وبلوغ الذروة في العلوم العقلية.

•وحدة الغاية عند كل من الرافعي ودراز، وهي إبراز سر الإعجاز في القرآن الكريم.

تم بحمد الله وعونه ما رمنا بيانه من هذا البحث.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيراً، والحمد لله رب العالمين